

أهمية دراسة التاريخ

للدكتور محمد مصطفى صفوت

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

مركز التاريخ في التربية العقلية والجمالية كبير . فالتاريخ يزيد معلومات الدارس عن الحياة ، ويوسع أفق تفكيره ، ويرقى بقدرته على الحكم . وفي التاريخ يستطيع الإنسان البحث في أسباب الحركات العظيمة ونتائجها ، وفي اتجاهات العالم لو أن حوادث هامة لم تقع . لا ريب في أن طريقة البحث الذاتي وقراءة المصادر الأصلية وتفسيرها وتقديرها تثير همة الباحث وتنبعث فيه حب الحقيقة والبعيد عن التحيز . وفي التاريخ مادة تساعد على تقوية أنواع الذاكرة التي لدى الطالب ، ففي رؤية الآثار والصور التاريخية ما يقوى بعض الأنواع البصرية من الذاكرة ، والتاريخ يقوى التذكر اللفظي إذا كان عند الدارس استعداد طبيعي لتذكر ما يسمع ولتذكر نوع خاص مما يسمع . أما من حيث الخيال فالتاريخ قيمة كبيرة في تدريسه وتوسيع مجاله . فالتاريخ القصصي يشبع رغبات صغار القارئ في التخيل والبعيد عن عالم الحقيقة الراهنة فيرون فيه أعمال البطولة ، ويتلو الحوادث بعضها بعضاً فيذهب بهم الخيال كل مذهب ولكن في حدود الحقيقة . أما في حالة المراهق الذي يشرد به الخيال نتيجة لثورة قوية يهتز لها جسمه وعقله ويرجع الفكر به إلى الماضي البعيد للانسانية أو يمتد به إلى المستقبل ثم يتقلب به إلى الحياة الحقيقية وهو كليل — يشق التاريخ فيه هذه الرغبة في الرجوع إلى الماضي ويفسر له النظم الموجودة ويخفف من حدة شروء الفكر . ويجد الباحث والدارس لذة عظيمة في قراءته للتاريخ وتخيُّله للحوادث . فزيارة للأهرام والآثار حولها، وتخيُّل فرعون يأمر وينهى وقد عنت له الوجوه ... كل هذا يستوقف النظر ويشير ذكريات لأيام رفلت في حلاها مصر ... وفي التاريخ مجال واسع لترين الخيال، يمدّه بالمادة التي هي أساس له، ثم هو يدرّب المقدرة على للتخيُّل ويسمو به . ويساعد التاريخ على تذوق الفن والجمال . فهو معرض لنواحي الحياة الإنسانية : فهذا جانب السياسة ، وهذا جانب الاجتماع ، وهذا جانب العلم والأدب . هذه ناحية إرضاء الشهوات ، وهذا ناحية إرضاء الروح . هذه

هي آثار المصري ، هذه مسلاته ومعابده . هذه هي آثار الفن على حياة الإغريق ... هذا هو الأدب الذي فاضت به النفس البشرية . ما الشعور الذي يقلب على النفس حينما يزور الإنسان هيكلًا من الهياكل أو معبدًا من المعابد أو مسجدًا من المساجد أو قصرًا من القصور القديمة ، أو عند ما يقرأ وصفًا لهذه الآثار ما الإحساس الذي تحسه النفس حين تقرأ وصف البحري إيوان كسرى أو وصف ابن حمديس لقصور أمراء تونس !

وأخيراً ننقل إلى قيمة التاريخ العظيمة في التربية الوطنية والإنسانية . يولد الإنسان في مجتمع تربط أفراد علاقات متعددة ، لا يدري شيئاً عن نظم ذلك المجتمع وقوانينه التي هي كنز خلفه الماضي ، ماضى بلده و ماضى وطنه و ماضى الإنسان ؛ فالنظم والمثل العليا التي عينت سير الإنسانية في الماضي لا زالت هي التي تعين وتحدد السير في الحاضر ، ولا مناص للإنسان من تاق هذه التركة بما فيها من أعباء ومسئوليات . وكيف يقوم بواجبه نحو ذلك التراث ونحو الوطن والمجتمع الإنساني إذا لم يدرس هذه التركة وقيمتها ؟ وقد لاحظ حزب من المفكرين هذه القيمة ، فقالوا بتدريس التاريخ القوي والاهتمام به اهتماماً خاصاً . ظهرت هذه الفكرة بشكل واضح في روسيا عقب كارثة سينا ، وانتشرت في أوروبا بين الشعوب التي تحفظ للظهور والوحدة . رأت هذه الشعوب أن الوطنية الحق لا تقوم إلا على أساس الفهم لنظم الوطن ، وتقدير التركة التي خلفها ، وتحمل المسؤولية التي تركها ، ومعرفة أيام عظمته وأيام محنته والعمل على نشر الرسالة التي خلق من أجلها . والتاريخ حينما يذكر مجد الوطن ومحنته هو في نفس الوقت يدعو إلى المحافظة على تراث الوطن سليماً للمستقبل ، إن لم يكن زائداً فقير منقوص ، لأنه يخلق العاطفة والشعور الذي يدفع الفرد إلى القيام بواجبه وتبني السبيل أمامه . على أن الفرض القومي لا يجوز أن ينسبنا الأمانة العلمية وحب الحقيقة .

والتاريخ ليس سجلاً لماضى الوطن فحسب ، فهو سجل لماضى الإنسانية كلها . والنفس ميالة بطبيعتها إلى معرفة ما خلفه الإنسان في كل مكان ، ذلك الإنسان الذي تربطها به وشائج القرابة والنسب . ولن ينكر متقف قيمة ماضى الإنسانية لحاضرها . ويدلل المفكر الإنجليزي جراهام ولاس على هذه القيمة بأنه لو فرض وأسييت الأرض بصاعقة لنسى كل فرد

بين الدول لا زال قانون القوة . حتى في الناحية العقلية يشير البعض إلى مثل ذلك الجلود ، فلا دليل في نظرم على أن عقل الإنسان الحاضر أرقى من عقل أفلاطون . ويقول هكسلي إنه لا يعرف دراسة محزنة لتفسير تطور الإنسانية مثل دراسة التاريخ . فالإنسان لا زال وحشاً ولكنه خير من الوحوش الأخرى . وأحسن الحضارات الحديثة لم تظهر لنا مثلاً أعلى أو شيئاً جديراً بالبقاء

ويرد على ذلك بأن التاريخ يرى لكل عصر مساوئه ، وأن الإنسانية لم تبلغ بعد حد الكمال ، وأن الطبيعة الإنسانية ذاتها لم تتغير إلا بمقدار ضئيل ، وإنما الذي يتغير تغيراً محسوساً هو تكيفها لظروفها الطبيعية والاجتماعية . ونمو حصول الإنسان من حيث المعلومات ومن الناحية المادية واضح ، فكشف العالم الجديد وكشف كثير من قوى الطبيعة واستغلالها لمصلحته ، وتكليف الإنسان للبيئة من إصلاح الأراضي وإزالة الغابات واختراق البحار والجبال والصحارى والهواء شواهد على النمو العقلي وعلى ارتفاع مستوى المعيشة . ولا ريب في أن زيادة القدرة على التعليم والتعلم ، وتقديم العلم ونهولة الانتقال هي في مصلحة الرقي العقلي والأخلاقي والروحي

التاريخ يصف التطور الاجتماعي لا المعنوي والبدني ، فإذا شمر الدارس بأنه يعيش في جو كله تطور ونمو فهو لا ينسى الماضي . سيقدر الحاضر ويزداد أملاً في المستقبل . يعرف الدارس خلال التاريخ سر الإنسانية ويجد فيه أكبر خادم للفكرة الإنسانية ذاتها ؛ لأنه يقلل من حدة التعصب لقومية أو لدين وعادات . فالتاريخ يبين أن العالم لم يقم على حضارة واحدة أو لغة واحدة أو دين واحد أو عصر واحد — فلكل حضارة نصيبها يفينها التاريخ إياه — يرينا أن الأمم تبادلت ولا تزال تتبادل أنواع الحضارة . ولئن كان العالم قد أفاد فن الحضارة المصرية القديمة فهو مدين للفلسفة اليونانية والفن اليوناني والقانون الروماني . ولا ريب في أن مدينة العصور الوسطى في الشرق والغرب كانت أساساً عملياً لحضارة العصور الحديثة .

محمد مصطفى صفوت

العادات والمعلومات التي أخذها من الأجيال الماضية فتسعة أعشار سكان لندن ونيويورك سيموتون في مدى شهر ، وتسعة وتسعون في المائة من الباقي سيموتون في خلال ستة أشهر إذ لا يكون لديهم لغة ولا أفكار ولا معرفة بالقراءة والكتابة ... والإنسان محتاج إلى إنسانيته القديمة ليحيا حياة طيبة ، وكما ارتقت به الحضارة زاد احتياجه إليها . التاريخ يشرح لنا الفكرة التي تسيطر على العالم ، فكرة التطور . قد يرى البعض أن العلوم الطبيعية والأدب يفسران ناحية منها ، والتاريخ يفسر النواحي السياسية والاجتماعية ، ولكن إنعام النظر يرينا أن العلم الطبيعي والأدب يدخل فيهما عنصر التطور نفسه ولذا لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى التاريخ

التاريخ يضرب لنا أمثلة حسية على الحياة ، فهذه حياة أناس عاشوا في ذلك العالم وأحسوا إحساسات خاصة ، تجاربوا وتصلحوا وطلبوا بحقوقهم وذادوا عنها أو انصرفوا إلى التمتع بالحياة وأحبوا الترف ، ماذا كانت نتائج أعمالهم ، ما بواعث فعالهم ؟ يبين لنا التاريخ اختلاف الناس وأثر ذلك الاختلاف ، وأن لكل فرد نحو بلده ونحو وطنه ونحو العالم مهمة خاصة يؤديها في الوجود . وهو لا يبين لنا اختلاف الأفراد أو الطبقات فحسب ، بل اختلاف الأمم والشعوب أيضاً ، فلكل أمة رسالة قد أدتها أو هي في سبيل تأديتها للحياة . ثم هو يبين لنا اختلاف العصور ، فكل عصر مختلف عن سابقه له طابعه الخاص في طرائق تفكيره ومنتجاته . فمصرنا الحاضر مختلف اختلافًا ظاهراً عن العصور الماضية ومشاكلنا والموازين التي نحكم بها على الأشياء مختلفة عن ميثلتها في الماضي ، ولكن الماضي ضروري لفهم مشاكلنا الحالية ، فالحياة كما يوضح لنا التاريخ في تغير دائم ، في تطور

يرينا التاريخ تعاون الإنسانية في ارتفاع سلم الحضارة ، كما يرينا أنها سائرة في طريق النمو والتحسن ، فالأفراد يميون ثم يموتون ، والأمم تقوم وتسقط ، والحضارة تتقدم حيناً وحيناً تتأخر ، ولكن النمو مطرد . فالإنسان كفرد تزداد حقوقه وأصبح أمامه مجال كبير لخدمة مستقبله وعائلته ووطنه والعالم . ويتكرر بعض المفكرين النمو في نواحي الروح والدين والأخلاق ؛ فالعصور الماضية عصور الأنبياء . ولم تتقدم الأخلاق خطوة ، فالقانون